أحاديث إصلاح القلوب

(٢٥)

المواعظ حياة القلوب

عن الْعِرْبَاض بن سارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا فَوَعَظَنَا مَوْعِظَةً بَلِيغَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، كَأَنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا؟ فَقَالَ: «**أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ عَبْدًا حَبَشِيًّا؛ فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا؛ فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ**». رواه أبو داود والتِّرمذيُّ[(١)].

وعَنْ أَبِي وَائِلٍ قَالَ كَانَ عَبْدُ اللهِ بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُذَكِّرُ النَّاسَ فِي كُلِّ خَمِيسٍ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، لَوَدِدْتُ أَنَّكَ ذَكَّرْتَنَا كُلَّ يَوْمٍ، قَالَ: «أَمَا إِنَّهُ يَمْنَعُنِي مِنْ ذَلِكَ أَنِّي أَكْرَهُ أَنْ أُمِلَّكُمْ، وَإِنِّي أَتَخَوَّلُكُمْ بِالْمَوْعِظَةِ كَمَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَتَخَوَّلُنَا بِهَا مَخَافَةَ السَّآمَةِ عَلَيْنَا». رواه البخاريُّ ومسلم[(٢)].

وعَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لَا يُطِيلُ الْمَوْعِظَةَ

---

(١) رواه أبو داود (٤٦٠٧)، والتِّرمذيُّ (٢٦٧٦)، وصحَّحه الألبانيُّ.

(٢) رواه البخاريُّ (٧٠)، ومسلم (٢٨٢١).

يَوْمَ الْجُمُعَةِ، إِنَّمَا هُنَّ كَلِمَاتٌ يَسِيرَاتٌ». رواه أبو داود[١].

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ الصَّلَاةَ يَوْمَ الْعِيدِ فَبَدَأَ بِالصَّلَاةِ قَبْلَ الْخُطْبَةِ بِغَيْرِ أَذَانٍ وَلَا إِقَامَةٍ، ثُمَّ قَامَ مُتَوَكِّئًا عَلَى بِلَالٍ فَأَمَرَ بِتَقْوَى اللهِ وَحَثَّ عَلَى طَاعَتِهِ وَوَعَظَ النَّاسَ وَذَكَّرَهُمْ، ثُمَّ مَضَى حَتَّى أَتَى النِّسَاءَ فَوَعَظَهُنَّ وَذَكَّرَهُنَّ، فَقَالَ: «**تَصَدَّقْنَ فَإِنَّ أَكْثَرَكُنَّ حَطَبُ جَهَنَّمَ**». فَقَامَتِ امْرَأَةٌ مِنْ سِطَةِ النِّسَاءِ سَفْعَاءُ الْخَدَّيْنِ، فَقَالَتْ: لِمَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**لِأَنَّكُنَّ تُكْثِرْنَ الشَّكَاةَ وَتَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ**». قَالَ فَجَعَلْنَ يَتَصَدَّقْنَ مِنْ حُلِيِّهِنَّ يُلْقِينَ فِي ثَوْبِ بِلَالٍ مِنْ أَقْرِطَتِهِنَّ وَخَوَاتِمِهِنَّ. رواه البخاريُّ ومسلم واللَّفظ له[٢].

هذه الأحاديث -ولها نظائر كثيرة في السُّنَّة- تدلُّ على مكانة الوعظ العليَّة وعظم نفعه وقُوَّة تأثيره على القلوب وجلًا وخوفًا وإقبالًا على الله، وأنَّ مجالس الوعظ هي حياةُ القلوب ويقظتُها.

عَنْ حَنْظَلَةَ الأُسَيِّدِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -وَكَانَ مِنْ كُتَّابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ- قَالَ: لَقِيَنِي أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ كَيْفَ أَنْتَ -يَا حَنْظَلَةُ-؟ قَالَ: قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ، قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ مَا تَقُولُ؟! قَالَ: قُلْتُ: نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ

---

(١) رواه أبو داود (١١٠٧)، وحسَّنه الألبانيُّ.

(٢) رواه البخاريُّ (٣٠٤)، ومسلم (٨٨٥).

وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْىَ عَيْنٍ فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ فَنَسِينَا كَثِيرًا، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَوَاللهِ إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هَذَا. فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ يَا رَسُولَ اللهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**وَمَا ذَاكَ؟**». قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، نَكُونُ عِنْدَكَ تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْىَ عَيْنٍ فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ نَسِينَا كَثِيرًا. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**وَالَّذِى نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي وَفِي الذِّكْرِ؛ لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلَائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِى طُرُقِكُمْ، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ، سَاعَةً وَسَاعَةً**». ثَلَاثَ مَرَّاتٍ[1].

وفي لفظ قَالَ: «كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَوَعَظَنَا فَذَكَرَ النَّارَ، قَالَ: ثُمَّ جِئْتُ إِلَى الْبَيْتِ فَضَاحَكْتُ الصِّبْيَانَ وَلَاعَبْتُ الْمَرْأَةَ، قَالَ: فَخَرَجْتُ فَلَقِيتُ أَبَا بَكْرٍ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ: وَأَنَا قَدْ فَعَلْتُ مِثْلَ مَا تَذْكُرُ. فَلَقِينَا رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، نَافَقَ حَنْظَلَةُ. فَقَالَ: «مَهْ». فَحَدَّثْتُهُ بِالْحَدِيثِ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَأَنَا قَدْ فَعَلْتُ مِثْلَ مَا فَعَلَ فَقَالَ: «**يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً، وَلَوْ كَانَتْ تَكُونُ قُلُوبُكُمْ كَمَا تَكُونُ عِنْدَ الذِّكْرِ لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلَائِكَةُ حَتَّى تُسَلِّمَ عَلَيْكُمْ**

---

(١) رواه مسلم (٢٧٥٠).

فِي الطُّرُقِ». رواه مسلم[١].

فالقلوب في مجالس الوعظ والتَّذكير تتحرَّك خوفًا ورجاء ورغبةً ورهبةً لقُوَّة تأثير الوعظ عليها لما يرد فيها من مواعظ القرآن وهدي الرَّسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وأعظم واعظ للقلوب كتابُ الله، قال تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:١٨٣]. وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [يونس:٥٧]. وقال تعالى: ﴿وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود:١٢٠]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [النُّور:٣٤].

فجعله تعالى شفاء لما في الصُّدور وهدى ورحمة للمؤمنين؛ لما فيه من الحكمة والموعظة الحسنة بالتَّرغيب والتَّرهيب والتَّزهيد في الدُّنيا والتَّرغيب في الآخرة والأمثال والقصص الَّتِي فيها أنواع العبر والاستبصار، فيرغب القلب ويقبل كُلَّما عظم حظُّه من مواعظ القرآن.

ومَن وفَّقه الله لحسن الانتفاع بمواعظ القرآن حاز خيرات كثيرة، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا (٦٧) وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النِّساء:٦٦].

قال السِّعديُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «رتَّب ما يحصل لهم على فعل ما يوعظون به، وهو

---

(١) رواه مسلم (٢٧٥٠).

أربعة أمور:

أحدها: الخيريَّة في قوله: ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ أي: لكانوا من الأخيار المُتَّصفين بأوصافهم من أفعال الخير الَّتِي أمروا بها، أي: وانتفى عنهم بذلك صفة الأشرار، لأنَّ ثبوت الشَّيء يستلزم نفي ضِدِّه.

الثَّاني: حصول التَّثبيت والثَّبات وزيادتُه، فإنَّ الله يُثبِّت الَّذِين آمنوا بسبب ما قاموا به من الإيمان، الَّذِي هو القيام بما وُعِظُوا به، فيُثَبِّتهم في الحياة الدُّنيا عند ورود الفتن في الأوامر والنَّواهي والمصائب، فيحصل لهم ثبات يُوَفَّقُون لفعل الأوامر وترك الزَّواجر الَّتِي تقتضي النَّفس فعلها، وعند حلول المصائب الَّتِي يكرهها العبد، فيُوَفَّق للتَّثبيت بالتَّوفيق للصَّبر أو للرِّضا أو للشُّكر. فينزل عليه معونة من الله للقيام بذلك، ويحصل له الثَّبات على الدِّين، عند الموت وفي القبر.

وأيضًا فإنَّ العبد القائم بما أمر به، لا يزال يتمرَّن على الأوامر الشَّرعيَّة حتَّى يألفها ويشتاق إليها وإلى أمثالها، فيكون ذلك معونة له على الثَّبات على الطَّاعات.

الثَّالث: قوله: ﴿وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النِّساء:٦٧] أي: في العاجل والآجل الَّذِي يكون للرُّوح والقلب والبدن، ومن النَّعيم المقيم ممَّا لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

الرَّابع: الهداية إلى صراط مستقيم، وهذا عموم بعد خصوص لشرف الهداية إلى الصِّراط المستقيم، من كونها متضمِّنة للعلم بالحقِّ، ومحبَّته وإيثاره والعمل به، وتوقُّف السَّعادة والفلاح على ذلك، فمَن هُدِيَ إلى صراط مستقيم، فقد وُفِّقَ لكل خير واندفع عنه كلّ شرٍّ وضير»[(١)].

وقد ذكر الله سبحانه أنَّ المنتفعين بمواعظ القرآن هم المُتَّقون، قال تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:١٨٣]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [النُّور:٣٤].

لأنَّ المُتَّقين هم الَّذِين يحسنون الانتفاع بعظاته فتهديهم إلى سبيل الخير والرَّشاد، وتزجرهم عن طريق الغيِّ والفساد، وأمَّا غير المُتَّقين فهي بيان لهم، تقوم به عليهم الحُجَّة من الله، ليهلك من هلك عن بيِّنة ويحيى من حيي عن بينة.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقوله: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:١-٢]؛ وهنا لطيفة تُزيل إشكالًا يفهم هنا: وهو أنَّه ليس من شرط هذا المُتَّقي المؤمن أن يكون كان من المُتَّقين المؤمنين قبل سماع القرآن، فإنَّ هذا أوَّلًا ممتنع؛ إذ لا يكون مؤمنًا متَّقيًا مَن لم يسمع شيئًا من

(١) تيسير الكريم الرَّحمن (ص١٨٥).

القرآن.

وثانيًا: أنَّ الشَّرط إنَّما يجب أن يقارن المشروط، لا يجب أن يتقدَّمه تقدُّمًا زمانيًّا، كاستقبال القبلة في الصَّلاة.

وثالثًا: أنَّ المقصود أن يَبِينَ شيئان:

أحدهما: أنَّ الانتفاع به بالاهتداء والاتِّعاظ والرَّحمة هو -وإن كان موجبًا له- لكن لا بُدَّ مع الفاعل من القابل؛ إذ الكلام لا يُؤَثِّر فيمَن لا يكون قابلًا له، وإن كان من شأنه أن يهدي ويعظ ويرحم، وهذا حال كُلِّ كلام.

الثَّاني: أن يُبيِّن أنَّ المُهْتدين بهذا هم المؤمنون المُتَّقون، ويستدلُّ بعدم الاهتداء به على عدم الإيمان والتَّقوى»[(١)].

فالموعظة إذًا لا تنفع إلَّا مَن آمن بالله وخافه ورجاه، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْآخِرَةِۚ﴾ [هود:١٠٣]، وقال تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾ [الأعلى:١٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾ [النَّازعات:٤٥]، وقال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق:٤٥].

هذا وكم تحتاج قلوب العباد إلى المواعظ الحسنة والنَّصائح الرَّفيقة الموقظة للقلوب، المُجَدِّدة للإيمان الطَّاردة للغفلة والعصيان.

والواعظ أثره في قلوب العباد عظيم ونفعه كبير، إن رزقه الله الإخلاص

---

(١) مجموع الفتاوى (١٦/ ١٥).

وحسن الموعظة والسَّبق إلى الخير والعمل بما يدعو إليه، وأمَّا مَن لم ينتفع بعلمه، فإنَّ موعظته لا تقبلها القلوب؛ لأنَّ النُّفوس كما يقول ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مجبولة على عدم الانتفاع بكلام مَن لا يعمل بعلمه ولا ينتفع به، وهذا بمنزلة مَن يصف له الطَّبيب دواء لمرض به مثله، والطَّبيب معرض عنه غير ملتفت»(١).

ومن نعمة الله على عبده المؤمن أن جعل له في قلبه واعظًا يزجره عن طريق الغفلة وسبلِ الانحراف.

عَنْ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «**ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، وَعَلَى جَنْبَتَيْ الصِّرَاطِ سُورَانِ، فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ، وَعَلَى الْأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ، وَعَلَى بَابِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ: أَيُّهَا النَّاسُ، ادْخُلُوا الصِّرَاطَ جَمِيعًا، وَلَا تَتَعَرَّجُوا، وَدَاعٍ يَدْعُو مِنْ فَوْقِ الصِّرَاطِ، فَإِذَا أَرَادَ يَفْتَحُ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ، قَالَ: وَيْحَكَ لَا تَفْتَحْهُ، فَإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ، وَالصِّرَاطُ الْإِسْلَامُ، وَالسُّورَانِ: حُدُودُ اللهِ، وَالْأَبْوَابُ الْمُفَتَّحَةُ: مَحَارِمُ اللهِ، وَذَلِكَ الدَّاعِي عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ: كِتَابُ اللهِ، وَالدَّاعِي مِنْ فَوْقَ الصِّرَاطِ: وَاعِظُ اللهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ**»(٢).

---

(١) مدارج السَّالكين (٢/ ٧٥ - ٧٦).

(٢) رواه أحمد (١٧٦٣٤)، وصحَّحه الألبانيُّ في صحيح الجامع (٣٨٨٧).

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فقد بيَّن في هذا الحديث العظيم - الَّذِي مَن عرفه انتفع به انتفاعًا بالغًا إن ساعده التَّوفيق؛ واستغنى به عن علوم كثيرة- أنَّ في قلب كلِّ مؤمن واعظًا، والوعظ هو الأمر والنَّهي والتَّرغيب والتَّرهيب، وإذا كان القلب معمورًا بالتَّقوى انجلت له الأمور وانكشفت؛ بخلاف القلب الخراب المظلم؛ قال حذيفة بن اليمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّ فِي قَلْبِ الْمُؤْمِنِ سِرَاجًا يَزْهَرُ »[1].

أصلح الله قلوبنا وأنار بصائرنا ويسَّر لنا أبواب الخير.

(١) مجموع الفتاوى (٢٠/ ٤٥).